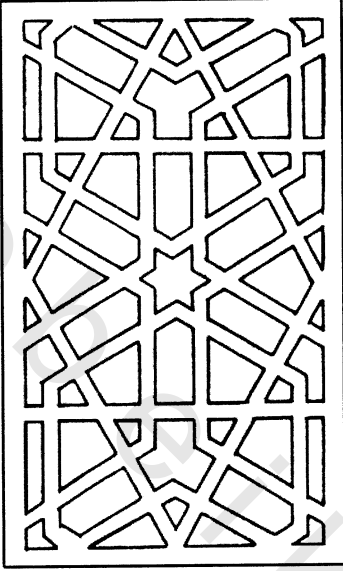




الزمرة الثانية

التعريف بالعلوم الشرعية وغيرها

- أهمية علم الحديث
- الفقه ثمرة علمي التفسير والحديث
- علم مصطلح الحديث
- علم العقيدة (علم الكلام)
- علوم اللغة العربية
- علوم البلاغة
- العلوم التطبيقية
- العلوم الإنسانية
- أسباب التقدم العلمي والتأخر فيه
- سبل النهضة بالعلوم
- تقسيم العلم إلى نافع وغير نافع
- معوقات العلم
- حظ النساء من العلم

obeikandi.com

في جولتنا بالتحبيب في علوم الشريعة الغراء نصل إلى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن علم الحديث يعتبر العلم التالي للتفسير، والحديث نبع من منابع الشريعة، وقد كان الصحابة الكرام يولونه الاهتمام الكبير بعد كتاب الله عز وجل، ذلك أن السنة النبوية هي الشارحة للكتاب المفسرة له، وهي المثبتة لأحكام أخرى وكل تفصيلها إلى السنة النبوية، يقول الله عز وجل: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾^(١). ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه" فالسنة النبوية هي وحي ولكنه وحي غير متلو، يقرأه الناس بما يستطيعون من روايته.

و كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يسمعون من النبي عليه الصلاة والسلام قولاً إلا حفظوه ونقلوه وأجهدوا أنفسهم في تلقيه وروايته على وجهه، ومن هنا نشأ عندهم التحرج من كثرة الرواية خشية التبديل والتغيير، فكان المثبت منهم إذا روى حديثاً من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بعده: أو كما قال، قال نحو هذا، كل ذلك حرصاً على أن يؤدوا هذه الأمانة على وجهها.

(١) سورة النحل / ٤٤ .

كتب الناس كتاب الله عز وجل وحفظوا سنة النبي صلى الله عليه وسلم حفظاً استجابة لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يفرّدوا كتاب الله بالكتابة حتى لا يلتبس القرآن بغيره، ولكن كتب كثير من الصحابة أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابة فردية ليست على سبيل التدوين الرسمي، إلى أن جاء عهد عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه فكتب إلى ولاية الأمصار مرسوماً أميرياً: من أمير المؤمنين إني خفت ذهاب العلماء ودروس العلم فاكتبوا ما عندكم من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فانبرى العلماء في كل بلد يجمعون ما وصل إلى علمهم من كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكانوا يمزجون ذلك الحديث بآثار الصحابة وبشيء من الفقه فكان أول المؤلفات التي عرفها المسلمون مؤلفات السنة.

ولعل أقدم تلك الكتب التي وصلت إلينا موطأ الإمام مالك، ثم تلا ذلك كتب صحاح يعرفها الناس صحيح البخاري وصحيح مسلم وكتب السنن وكل هذه الكتب إنما هي دواوين للسنة تجمعها حتى لا يغيب منها شيء، ولكن جمع السنة بهذا الشكل لا يقوى عليه عالم مفرد ولذلك يقول الإمام الشافعي بأن السنة لا تضيع مع وجود هؤلاء الحفاظ يجمع هذا ما ليس عند ذاك، والسنة كتبت كتابة وثيقة فيها الإسناد وفيها الرواية وفيها كثرة الطرق والروايات التي تبين كل حديث كيف وصل من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصحابة ثم التابعين ثم تابع التابعين ومن بعد ذلك من علماء إلى أن تصل إلى أصحاب الكتب المدونة التي أحصوا فيها تلك الأحاديث وأوردوا فيها الأسانيد.

وقد نشأ إلى جانب كتب الأحاديث كتب تبين علم الرواة الذين رووا تلك الأحاديث وتتحدث عن عدالتهم وضبطهم أو غير ذلك لكي تبين ثقة الرواية ومستند الحديث ولكن العلماء رأوا أن هذه الكتب يعسر على غير

المختصين الاستفادة منها فجردوا تلك الكتب من أسانيدھا وجمعوا للناس كتباً مختارة يصل إليها الإنسان بأدنى نظرة، فمن الواجب على المختص وغير المختص أن يقبل على السنة ويغترف منها، فإن السنة النبوية ليست فقط مصدراً من مصادر التشريع وإنما هي أدب بليغ و سيرة عطرة يجد فيها الإنسان القدوة الحسنة والأسوة الكريمة والأمثلة الفاضلة التي يحتذيها ، إنها تطبيق فعلي للإسلام، لقد كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القرآن فكان حياة رسول الله وسيرته حكاية عملية لأحكام القرآن وتعليماته .

ومن هنا كان اهتمام الناس بالحديث فقرنوه بالقرآن واعتبروا ثقافة القرآن والحديث هي ثقافة الناس ، نلمس هذا في أدب الأدباء وشعر الشعراء نجد لهم الاقتباس الجميل ونجد لهم التضمين اللطيف لآيات القرآن التي جرت مجرى الأمثال ولأحاديث رسول الله من جوامع الحكم ، وهكذا كان القرآن والحديث مدار ثقافة الناس ومنبع حياتهم فهو لهم في دينهم وهو لهم في لغتهم وهو لهم في دنياهم . وجدير بالإنسان المسلم أن يختار كتاباً من كتب السنة القريبة على أن يكون هذا الكتاب مشروحاً مفسراً له حتى لا يغيب عنه شيء من معاني حديث رسول الله فإن سنة النبي عليه الصلاة والسلام إنما هي للتطبيق فإذا لم يعلم الإنسان معنى الحديث يتعذر عليه تطبيقه وتنفيذ ما فيه من أحكام .

إن من هذه الكتب القريبة التناول كتاب ألفه إمام جليل هو الإمام النووي، وكتابه هو " رياض الصالحين " هذا الكتاب بين مؤلفه أنه ألفه للذين لا يستطيعون الرجوع إلى كتب السنة المسندة، وهذا الكتاب فيه من جوامع الكلم وفيه من أحكام الإسلام الأساسية والترغيب والترهيب ما يجد

فيه الإنسان غنية في هذا الجانب الخلقي من الإسلام فإذا أراد أن يتوسع رجع إلى بعض كتب أحاديث الأحكام التي تبين له الحلال والحرام .

كما ألف العلماء كتباً صغيرة قريبة التداول ودعوا هذه الكتب الأربعين حديثاً وأول من صنع ذلك عبد الله بن المبارك وآخرون بعده جمعوا أربعين حديثاً لتكون قريبة إلى الصغار يستحفظونها عندما يستحفظون صغار السور، فكانت هذه الأربعون من الأحاديث تتناول نوعاً أو أنواعاً من العلوم يستفيد منها ذلك الناشئ، على أن الإمام النووي اختار أربعين حديثاً عليها مدار الإسلام تمثل المبادئ الأساسية للدين وقد بناها على أحاديث سبقه إليها ابن الصلاح، وهذه الأربعون النووية مفيدة كل الإفادة لمن لا يسهل عليه الرجوع إلى الكتب الكبيرة المفصلة .

إن العناية بالسنة النبوية على كافة المستويات هي التي تقطع الطريق دون التشكيك بها والتهجم عليها، إن التهجم على السنة ليس مقصوداً به السنة ذاتها وإنما هو هجوم على الإسلام، ذلك أن أي تخل عن السنة النبوية إنما هو تعطيل للعمل بالقرآن، فالقرآن الكريم مدون ونصوص تفسيره وشرحه في السنة النبوية، فهي التي تبين كيفية الصلاة وما تدفع فيه الزكاة وتفصل صفة الحج وتبين للناس دينهم، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " صلوا كما رأيتموني أصلي " ، ويقول : " خذوا عني مناسككم " ، فإذا انقطع الناس عن السنة فكأنهم هجروا هذا الكتاب الكريم وبعثوا عن الإسلام، والله المستعان على أن تعطى السنة حقها وينافح عنها الجهابذة الذين عاشوا ويعيشون لها وهذا مصداق حفظ الله لكتابه ولكل ما يؤدي للعمل بكتابه .

رأينا فيما مضى أن القرآن والحديث هما منبع الأحكام الشرعية وهما أساس الإسلام، وثمره علمي الحديث والتفسير هو الفقه الإسلامي، فإذا ذكر الفقه فإن الذي يذكر هو الشرع الذي يحثيه الناس ويتبعونه، ومن هنا نشأت المذاهب الفقهية، فإنها ما أرادت إلا أن تطبق القرآن والحديث وتيسر للناس سلوك أحكام الله عز وجل والتعرف إلى دين الله تعالى.

يقول الله عز وجل في كتابه الكريم: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ ^(١). وقد كان نزول هذه الآية الكريمة أنه حينما كان المسلمون يجاهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو حين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل السرايا للجهاد، يحرص الجميع أن يذهبوا في تلك السرايا، لكن الله عز وجل دعا المسلمين إلى أن يوزعوا هذه الأعمال، فتكون منهم فئة مختصة تتلقى الأحكام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وللتفقه في دين الله، فإذا رجع أولئك المجاهدون استفادوا من هؤلاء ما تعلموا.

ولذلك تميز بعض الصحابة بأنهم كانوا من الفقهاء فليس كل الصحابة فقهاء، فقد كان في الصحابة من يشغله الجهاد، وكان منهم من يشغله

(١) سورة التوبة / ١٢٢.

الكسب، وكان منهم من يهر في بعض الصناعات وقد عُني ابن حزم في كتاب له ببيان نسبة الصحابة إلى الفقه فقد كان منهم مكثرون وكان منهم متوسطون وكان منه مقلون، وهكذا كان الحال فيمن بعدهم في عهد التابعين وتابع التابعين . ومن هنا نشأت المذاهب الفقهية ، فالمذهب الفقهي ليس إلا مدرسة لفقيه تفرغ لمعرفة الأحكام وتابعه تلاميذه و أصحابه وقلدوه حتى نشأ له اتجاه يسلكه في فهم الأحكام الشرعية، وقد كان من دأب هؤلاء الأصحاب أن يحفظوا أقوال أئمتهم ليحفظوا أوقاتهم من تكرار البحث فيما سبق، ولم يكن أحد من الأئمة يأمر أو يرضى لأصحابه أن يكتبوا أقواله دون اقتناع، بل كان أكثر هؤلاء الأئمة يحث أصحابه على أن ينظروا من حيث نظر، وأن يجتهدوا من حيث اجتهد، ولكن ما كان عليه هؤلاء الأئمة من تفوق ونبوغ جعل أصحابهم يهتمون بحفظ أقوالهم وتدوينها إلى أن نشأت المذاهب الفقهية التي نعرفها .

إن تقليد الأئمة في أحكامهم واتباع المذاهب ضرورة يقضي بها مراعاة الاختصاص فليس في إمكان كل مسلم أن يتخصص في الفقه وأن يجتهد ويستنبط الأحكام فإذا تدبرنا في الأمر نجد أن الأئمة الفقهاء أنفسهم كانوا يقلدون غيرهم من أصحاب العلوم فكانوا يقلدون بعض علماء اللغة وبعض علماء النحو وبعض علماء التفسير، ومن هنا نشأت الخلافات الفقهية التي تحفل بها المراجع .

إن التقليد بهذه الطريقة ليس أمرا غريبا لأنه من باب سؤال أهل الذكر والله عز وجل يقول : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(١) . ولكن مر على الناس عهود غلب على بعض منهم التعصب لبعض المذاهب وتداعى

(١) سورة النحل / ٤٣ .

الناس إلى غلق باب الاجتهاد في الأحكام ولو بلغ الإنسان أهليته، ومن هنا تحجر الفقه في بعض جوانبه بحيث أصبحت لا تناسب عصرا لاحقا، ولكنهم تحت وطأة التقليد والاتباع كانوا يعطلون ما لديهم من مواهب ويتبعون تلك المذاهب في حين يظهر لهم الحق في غيرها .

ومن هنا وجب على الفقيه المختص أن تكون لديه مرونة وأن يعمل ذهنه وأن يعمل فكره ولا يكون متبعا اتباعا أعمى ولا تقليدا أصم، وإنما يستفيد ويأخذ من حيث أخذ هؤلاء الفقهاء كما أن من الواجب على المسلم أن يكون له وسيلة يتعرف بها إلى أحكام الله عز وجل، فإذا كانت لديه أهلية أن ينظر ويستنبط فيها ونعمت، وإذا لم تكن تلك الأهلية متوافرة فيه فإن عليه أن يسأل ، وهذا السؤال قد يكون لمجتهد حي موجود وقد يكون بالبحث عن أي فقيه قد سبق وعرف بالحجة والاجتهاد، أما أن يأنف الإنسان من تقليد المذاهب والاستفادة من تلك المجموعات التي تمثل تراثا فقهيًا يعتز به المسلمون ويتداعى إلى اقتحام الاجتهاد دون أن يملك أهليته فإن ذلك من الظلم ووضع الشيء في غير موضعه .

إن الاجتهاد لم يكن آراء يطرحها الفقيه وإنما كان ملكة تتكون للإنسان من إتقان علوم كثيرة: فمنها علم اللغة، ومنها معرفة الإجماع ما أجمع عليه العلماء من قبل، ومنها أصول الفقه، ومنها معرفة السنة، ومنها معرفة التفسير، ومنها علوم أخرى من البلاغة، ومن التأهل في تلك العلوم تتكون ملكة للفقيه يجتهد بها ويصل بها إلى معرفة الأحكام ، ذلك أن الفقه ما هو إلا العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسب من أدلتها التفصيلية .

إن الفقه هو أساس حياة المسلمين، ويجب على المسلمين أن يوفرُوا الوسائل التي يستمر فيها رغيل الفقهاء بحيث يتلقى اللاحق عن السابق، فإذا

انقطع هذا الفقه فإنه تنتشر الفتاوى المضللة وينتشر الجهل مصداق ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله لا يقبض العلم ينتزعه من صدور العلماء وإنما يقبض العلم بقبض العلماء ، فإذا لم يبق عالم - وفي رواية إذا لم يبق عالما - اتخذ الناس رؤوسا جهالا فافتوا بغير علم فضلوا وأضلوا " .

رأينا فيما سبق نماذج من علوم الشريعة الغراء في التفسير والحديث والفقه ، وقد يخال الإنسان أن هذه العلوم علوم ينبغي أن تكون منتشرة في المسلمين خاصتهم وعامتهم وأن ما وراءها من علوم إنما هي للمختصين مثل علم أصول الحديث أو مصطلح الحديث وعلم أصول الفقه .

إن هذين العلمين ليسا من العلوم التي يحتاجها المختص فقط إنما هما علمان يعتبران ميزانا للتشريع: فالأول منهما هو لضبط طرق الورد كيف تنقل الشريعة وكيف تصل إلى المسلمين، وأما الثاني منهما فهو لا يستلزم النصوص ومعرفة دلالتها، فأصول الثبوت وأصول الدلالة يتكفل بهما هذان العلمان الكريمان اللذان هما مفخرة للمسلمين، ذلك أن الخبر يتأمل الإنسان كيف ينتقل إليه حتى يعرف هل نقل نقلا يورث اليقين أو غلبة الظن أم لا، وبعد أن يصل الخبر إلى الإنسان يتأمل في معناه ويدرك ما فيه من دلالة فانحصر الأمر في هذين الأمرين، ولذلك كان معيار العلم في الإسلام أن يتحقق من ثبوت الأمر ونقله، ثم يتحقق من معرفته وعقله وإدراكه .

ولا بد هنا من أن نتكلم بشيء من التفصيل عن علم أصول الحديث مصطلح الحديث، هذا العلم يعني برواية الأخبار وبخاصة منها أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعين، ويعتبر مفخرة للمسلمين إلى درجة أن بعض العلماء المختصين في التاريخ اشتبهوا أن يكون للتاريخ مثل

هذا العلم فاحتذوا حذو علماء التاريخ وألف كتابا سماه مصطلح التاريخ، لأن تلك القواعد التي وضعها علماء المصطلح إنما هي قواعد عقلية توزن بها الأخبار ويتعرف إلى ثبوتها وعدمه، ولذلك اشترط علماء الحديث في كل خبر ينقل :

١- أن تتوافر في رواته صفة العدالة .

٢- وصفة الضبط .

٣- وأن يكون هذا الخبر منقولاً جيلاً عن جيل .

٤- وأن لا يكون في هذا الخبر شذوذ عن رواته الآخرين .

٥- وأن لا يكون فيه أمر يقدر في سلامة نقله .

هذه الشروط الخمسة لو أراد الإنسان أن يضيف إليها شرطاً سادساً لما استطاع، ذلك أن الخبر عمدته رواته وهؤلاء يهم من أمرهم أن يكون علمتهم من الضبط والدقة والتثبت ما يحقق ورود الخبر على وجهه وأن لا يكون عندهم استهانة وبعد عن العدالة بحيث يقدم على الكذب أو التساهل . ثم أن يكون هذا الوصف متحققاً في راو بعد راو إلى أن يصل إلى متلقي الخبر، وإذا كان هذا الخبر مروياً من أناس كثيرين فيجب ألا يخالف هذا الراوي غيره، كما يجب ألا يكون هناك قدح في الرواية لا يدرك إلا بعد مزيد من التأمل. هذه الصفات إذا ألم بها الإنسان فإنه يستطيع أن يطبقها في مجالات كثيرة لا يقتصر الأمر على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده، ولذلك نجد أن علماء آخرين في فنون شتى كعلم اللغة وعلم التاريخ وعلم التفسير وغير ذلك من العلوم، استمدوا هذه الطريقة وبدؤوا يروون الأخبار والأمور والمعلومات بأسانيد يتثبتون فيها من رواتها فيحتجون بشيء منها وي طرحون ما لم تتوافر فيه صفات الاحتجاج .

إن على المسلم أن يفتح صدره لعلوم الشريعة وأن يلم بشيء منها، فإذا كان الإنسان العادي لا يستطيع أن يتمكن من هذا الإمام فإن على المختص في العلم والآخذ منه بنصيب أن يكون له إدراك لهذه الطريقة، ذلك أن إدراك ذلك الجهد العلمي الذي بذله علماء الحديث في ضبط السنة وفي نقلها وروايتها يحدث عند الإنسان حبا وتمسكا بالسنة، وقناعة بأن هذه السنة عاش لها الجهادية كما قال الإمام عبد الله بن المبارك حينما قيل له : هذه الأحاديث الموضوعة المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نضع بها وكيف ندفع خطرهما ؟ قال هذا الإمام : يعيش لها الجهادية والجهادية في الأصل معناها الصرافون الذين يتعرفون إلى الدراهم والدنانير المغشوشة والصحيحة .

وقد نشأ هذا العلم الجليل أول ما نشأ متناثرا في كتب الحديث، فقد أشار الإمام مسلم في مقدمة صحيحه إلى نبذ منه، كما أشار الترمذي في خاتمة سننه إلى أطراف منه، إلى أن قيض الله إلى هذا العلم أئمة أجلاء كتبوا فيه واحدا تلو الآخر فكتب فيه الإمام الرامهرمزي، وكتب فيه الحاكم، وأبو نعيم، والخطيب البغدادي، والقاضي عياض، إلى أن قيض الله له ابن الصلاح ذلك العالم النبيل، فأملى هذا العلم على أصحابه وتلاميذه شيئا بعد شيء ، وكتب فيه كتابه المعروف " علوم الحديث " والذي يسمى مقدمة ابن الصلاح ، وقد جاء بعد هذا الإمام الحافظ ابن حجر فلخص مقاصد هذا العلم في كتاب نخبة الفكر ، وهذا الكتاب يستغني به الطالب الذي يريد أن يلم بهذا العلم كما يجد فيه العالم المتعمق ما يشفي غليله .

وبحمد الله قد أُلِف كثير من الكتب الميسرة في هذا العلم الجليل حتى لم يبق عذر لمن له ولع في الثقافة الإسلامية إلا أن يأخذ من هذا العلم بنصيب ، فيعرف كيف نقلت هذه السنة نقلا أميناً دقيقاً يوجد في نفس الإنسان ثقة، ويدحض الشبهات التي يثيرها من لا خلاق لهم ليكذبوا

صفو السنة وليعوقوا الناس عن العمل بها. إن التعرف إلى هذا العلم ضرورة لا بد منها ، لأنه لا يجوز للإنسان أن يروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يثبت عنه، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حدث عني بحديث وهو يعلم أنه كذب فهو أحد الكذابين " ^(١) أي إن رواية الحديث المكذوب إنما هي مشاركة لواضعه في تداوله وترويجه بين الناس، بل إن رواية الحديث الضعيف فيها حجب للأحاديث الصحيحة المنيرة .

وإن المسلم لا يستطيع أن يتعرف صحيح الحديث من ضعيفه وموضوعه إلا إذا عرف تلك البيانات التي يقدمها العلماء ليدلوا على الحديث بأنه مرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو موقوف على أحد الصحابة، أو مقطوع من كلام بعض التابعين، وبأن هذا الحديث صحيح أي بلغ الدرجة العليا من الضبط والثبوت، أو أنه حسن أي أنه فيه أصل ، أو أنه ضعيف، وللضعيف أنواع كثيرة فهناك المعضل والمرسل وهناك المدلس والمنقطع فإذا تعرف الإنسان إلى هذه المنقطعات استطاع أن يثبت وأن يكون على بصيرة من أمره فإن رواية حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ينبغي فيها التثبت، لأنه حجة، فإذا أدلى الإنسان بحجج ضعيفة فإنه يوهن تلك الحجج الصحيحة ويحجب نورها .

وعلينا أن نشيع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحها وحسنها حتى ينتفع بها الناس، وبذلك نكون ممن دعا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنضارة، يقول صلى الله عليه وسلم: " نضر الله امرءاً سمع منا مقالة فوعاها فأداها كما سمعها " ^(٢) . فالأداء كما سمع الإنسان من رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتضي بالضرورة ألا ينقل الإنسان إلا حديثاً قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) رواه أبو داود وابن حنبل .

(٢) رواه الترمذى وابن ماجه .

تكلمت فيما مضى عن نماذج من العلوم الشرعية التي ينبغي للمسلم أن يكون له نصيب منها سواء أكان مختصاً أم ملماً وكان الغرض من ذلك أن تكون الثقافة العامة في الناس مستمدة من الإسلام في علومه ومعارفه، وقد يقول قائل : إن وراء العلوم الشرعية التي جرت الإشارة إليها علوماً أخرى، إذ لا يقتصر هذا الحقل المعرفي على التفسير والحديث والفقه وأصول الحديث وأصول الفقه فإن وراء هذه العلوم علوماً أخرى لها قيمتها وأهميتها، فهناك التوحيد، وعلوم القرآن، والتجويد، والفرائض، وعلوم أخرى يعرفها المختصون، والباعث على ذلك الاختصار هو التنويه بالعلوم التي يمكن للإنسان غير المختص أن يأخذ منها بنصيب يقل أو يكثر بحسب ظروفه وفرصه.

وإن هذه العلوم التي وراء ذلك إما أن تكون من جزئيات العلوم المذكورة سابقاً، وإما أن تكون من مقدماتها، وإما أن تكون مدرجة فيها .

فعلم التوحيد كان في الأصل ضمن التفسير، وهذا مسلك كثير من العلماء الذين كانوا يتعرضون في كتب التفسير عند آيات الصفات ونحوها من الآيات المتعلقة بأركان الإيمان ومسائل العقيدة وقد يتحصل من تلك الشروح كتب بحالها، ولينظر من شاء تفسير الفخر الرازي في ذلك .

وأما علوم القرآن فما هي إلا مقدمة لتفسير كتاب الله عز وجل .

وأما التجويد والفرائض وغيرها فبعض منها فروع من علوم أخرى معروفة مشهورة ، وبعض منها لا تكاد تكون إلا خبرات ومهارات يتقنها المسلم ليؤدي تلاوة كتاب الله عز وجل خير الأداء .

هذا وقد يظن أن علم التوحيد هو أشرف العلوم لتعلقه بالإيمان بالله تعالى فكيف يعد غيره كالتفسير أشرف منه والواقع أن علم الكلام يستحق التقديم، ولكن بما أن المراد من علم الكلام علم توحيد الله عز وجل وتوحيد الله - كما أشرت - كان العلماء يؤثرون التحدث عنه من خلال النصوص القرآنية والحديثية فلم يكن معهودا في زمن التابعين أن يقرءوا الحديث عن علم الكلام إلا أن يكون تبعا لنصوص تناولت ذلك من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله، وإنما أصبح هذا العلم علما مستقلا حينما احتاج المسلمون أن يصدوا حملات الفلاسفة الذين تناولوا شيئا من عقائد الإسلام وحكموا فيها عقولهم التي قد تدرك بعضا ويخفى عليها البعض، وإن من المعلوم أن للعقل طاقة فهو إذا أدرك أمورا قد تخفى عليه أمور ولا سيما الغيبيات، وقد وصف الله عز وجل به المؤمنين بأنهم يؤمنون بالغيب أي يصدقون بما أخبر الله عز وجل به مما لم يكن محسوسا لهم .

فعلماء الكلام أدوا مهمة كبرى اقتضاها زمنهم حين آثروا أن يخاطبوا أولئك المشتغلين بالفلسفة على قدر عقولهم ، سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم ممن لبسوا لبوس الإسلام كالزنادقة والمنافقين، وكانت تلك الحملات لا يقصد منها الاستيضاح والاستفهام وإنما كان يقصد منها التشكيك والهدم وكان خطرها على العامة لا على العلماء، فالعلماء يعرفون الحق من الباطل ويميزون الطيب من الخبيث، ولذلك كانت ثمة جهود علماء الكلام أن وضعوا سدا منيعا في وجه أولئك المهدمين، فحفظوا عقائد العوام،

وانتهت تلك الحملة بعد أن صمد لذلك أئمة أعلام كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ممن لقوا في سبيل الله شيئاً كبيراً من الأذى والاضطهاد ، وأجرهم عند الله .

ولكن هل هذه الوسائل ظلت محافظة على حيويتها أم أن الناس يحتاجون أن يعودوا عودة حميدة إلى الوضع الذي كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ والتابعون من بعده من أخذ هذه العقائد من خلال النصوص وربطها بالتطبيق من خلال الفطرة فطرة الإيمان وسلامة العقيدة، ولذلك نجد كثيراً من الأئمة أراحوا واستراحوا فوضعوا ما سموه عقائد نسبت إليهم نسبة تأليف، فقد وضع الإمام الطحاوي عقيدة سميت العقيدة الطحاوية، ووضع غيره من العلماء عقائد أخرى سميت بأسمائهم، وقد أرادوا من ذلك أن يقربوا السبيل على العامة، فيردوهم إلى الجادة، ويعدوهم عن التعقيد، ويحموهم من الدخول فيما لا طائل تحته لقد كان علم الكلام ضرورة زمنية أخرى فالفرق والملل والأديان كلها تحتاج إلى جلاء لكي يخاطب هؤلاء بما يفهمون، ولذلك نجد أن علماء أجلاء كابن تيمية عنوا بالتحدث عن تلك الأديان ومخاطبة أصحاب تلك الفرق ليردوهم إلى سواء السبيل .

إن علم الكلام لا تزال له ذيوله الآن، فكثير من الناس يعتني به ولكن على وجه آخر، فإذا كان الأولون قد اعتنوا به عن طريق الفلسفة وبوسائلها فإن في هذه الأيام أناساً يعتنون به بصورة أخرى فيها الإغراق وفيها المبالغة، ودين الله عز وجل بين الغالي والمقصر، فإذا أمكن تعليم الناس دينهم بعيداً عن الأشواك والمشاكل الفكرية فإن من الواجب على من يعلمهم أن يسلك هذه الطريق .

وبعد أن بينا نبذة عن هذه العلوم الشرعية نجد أن الإسلام يولي قدرا
مماثلا من الحظ للتأييد والدعوة إلى العلوم الأخرى ذلك أن الله عز وجل
يقول في كتابه الكريم : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ
مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾^(١) .

(١) سورة القصص / ٧٧ .

إذا كانت العلوم الشرعية مقاصد وغايات للإنسان المسلم فإن هناك وسائل لا بد منها لإدراك وتحقيق تلك المقاصد، وإن من القواعد الشرعية المعروفة أن للوسائل حكم المقاصد إذا كانت تلك المقاصد لا تحصل إلا بوسائلها، ونص القاعدة المتعلقة بذلك : ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

إن فهم علوم الشريعة وفهم كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يتطلب من الإنسان أن يكون له معرفة باللغة التي جاء بها هذا القرآن الكريم، ونطق بها الرسول العظيم عليه الصلاة والسلام، وكتبت بها هذه الثقافة الإسلامية التي نعتر بها، ودون به هذا التراث .

وإن أهم علوم اللغة العربية علما لا بد منهما لفهم كتاب الله عز وجل هما النحو والبلاغة . أما النحو فإنه علم تركيب اللغة واستعمال مفرداتها وهذا يشمل النحو والصرف، وقديما كان علماء العربية لا يفرقون في التأليف بين هذين العلمين، ومن المعلوم أن حياة اللغة إنما هي بحياة مفرداتها وتراكيبها وأسلوب التعبير بها ولولا ذلك لاتخذ كل إنسان لنفسه أسلوبا لا يفهمه الآخر ولكانت لكل بيئة لغة خاصة بها .

وقد يقول بعض الناس إن علم النحو ليس وسيلة للتفاهم ضرورية وإنما هو لفهم النصوص العربية السابقة وإنه يمكننا أن نتفاهم بأي لهجة أو بأي لغة

وهذا صحيح ولكن هذا لا يقبله مسلم، ذلك أن كتاب الله عز وجل هو مدار ثقافة المسلمين ، وهو أيضا مدار ثقافة العرب، فنحن نعلم فضل كتاب الله على لغة العرب، فقد كانت للعرب لغاتها المتعددة ولهجاتها الكثيرة والقرآن الكريم هو الذي جمع هذه اللهجات في لهجة واحدة كتب لها الخلود والبقاء .

وقديما كان بعض علماء العربية يبالغون في أمر النحو والبلاغة وغيرها من العلوم إلى درجة أن بعضهم كان يعدها أصلا للتفاهم، ولكن المنصفين منهم اعتبروها تحسينا للكلام ذلك أنه في الواقع يحصل التفاهم بأي علامة يتخذها الإنسان وبأي قرينة يتوصل إليها من غير قواعد النحو ولكن مآل هذا تأصيل اللهجات المتفرقة والمفرقة للناس، وأن يكون الفهم بعيد المنال لأنك لا تستطيع أن تفهم كلام من يحدثك إلا إذا عرفت القرائن التي يعتمد عليها والملابسات التي يركن إليها . وميزة قواعد النحو أنك توصل الفهم إلى السامع لما تريده بطريق أوضح لتبلغ به مرادك وتتكلم كما تكلمت العرب وتفهم كل ما جاء بلغتها وأي غاية أعز وأعظم من هذه الغاية .

إن من فوائد قواعد النحو حفظ أصول العربية من النسيان فلولا هذا التععيد الذي اهتدى إليه العلماء لنقلت إلينا أقوال وأشعار وأمثال وحكم لا نعرف الروابط بينها، فإما أن نحفظها كلها وقد ننطق بمثل ما نطقت به أو نخوننا المقدرة لأن السليقة والقوة والملكة التي كانت للعرب القدماء قد فقدتها الناس بعد اختلاط الألسن وتمازج الشعوب، وإذا كان أحد الأعراب قد تباهى بأنه سليقي يقول فيعرب وأنشد قائلا :

ولست بنحوي يلوك لسانه ولكن سليقي أقول فأعرب

فإن هذه السليقة أصبحت مفقودة الآن وأصبح من الواجب على كل إنسان يريد أن يقيم لسانه بالقرآن أن يتقن من قواعد النحو ما يمكنه من ذلك، فإنه لا يمكن أن تنطق بلغة العرب كما نطقت وأن تقرأ هذا الكتاب الكريم كما قرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلا بأن يكون لنا بعض الإمام - إن لم يكن المعرفة التامة - بقواعد النحو، فإذا كان هذا النحو قد وضع لخدمة كتاب الله عز وجل، ولصيانة حديث رسول الله صل الله عليه وسلم، فكيف لا يعده أهم الوسائل لعلوم الشريعة .

ولنستمع إلى قصة النحو التي يعرفها الكثيرون، وهي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه نقل إليه أن أعرابياً قرأ قول الله عز وجل : ﴿ وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ (١) . قرأ هذا الأعرابي كلمة رسوله بالجر فقال: " إن الله بريء من المشركين ورسوله " . أي عطف رسول الله على المشركين المتبرأ منهم بدلا من عطفه على لفظ الجلالة الذي هو المتبرئ من المشركين، وكان هذا حده من العلم، فهب علي رضي الله عنه وأمر أبا الأسود الدؤلي أن يضع قواعد النحو، وأن يتقن ويتمعن هذه القواعد من كلام العرب حتى كانت تلك النواة التي تداولها العلماء من عبد الله الحضرمي إلى الخليل بن أحمد الفراهدي وكان مآلها ومحطها عند سيبويه .

هذا ما كان من وضع النحو لخدمة كتاب الله، أما تأصيل النحو والعناية به لخدمة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعرفها من نشأة سيبويه العلمية ، سيبويه هذا كان عالما من علماء الحديث وكان يجلس في حلقة

يسمع فيها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمع من أستاذه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم " ما من أحد إلا أخذت عليه ليس أبا الدرداء"^(١) أي إن بعض الأصحاب قد يؤخذ عليهم شيء من المآخذ، واستثنى أبا الدرداء من تلك المآخذ فقرأ سيبويه هذا الحديث (ليس أبو الدرداء) وظن أن (أبو الدرداء) هو اسم (ليس) فهو مرفوع ، فرد ذلك عليه شيخه وأصحاب شيخه وخطوؤه وصححوه له بقولهم (ليس أبا الدرداء) وقالوا له لحت وأخطأت فكبرت هذه التخطئة على سيبويه فترك مجلس الحديث وانطلق إلى حلقة من حلق القواعد العربية ومهر فيها حتى أصبح إمام النحاة .

إذن هذا العلم ألف أول ما ألف لخدمة كتاب الله ووضعت قواعده وأرسيته أسسه لخدمة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نحاربه ؟ ولم تكرهه الناشئة ؟

إن لهذا سببا أريد أن أقوله ولست أول من يقوله، فقد رفع صوته أحد الكتاب في مجلة عربية محلية وندد بالطرق التي يعلم بها هذا العلم، وندد بهذا الاقتباس السيئ إذ يعلم النحو بنفس الطرق التي تعلم بها قواعد اللغات الأخرى، بطرق تستمد من هنا وهناك وهي طرق مخففة، فإذا نجحت في بيئات شعوبها لأن لغاتهم ليست مثل لغتنا فإنها لا تنجح فيما بيننا .

إن قواعد النحو تعلم للناشئة بطريقة تكرههم بالنحو، ذلك أنهم يعطون هذه القواعد جملة وجزءا بعد جزء، فيعطى لهم في كل سنة من سنوات الدراسة مقطع من هذه القواعد التي هي جملة واحدة، وما سميت قواعد

(١) رواه الترمذى وابن ماجه .

إلا لأن بعضها ييتني على بعض ، ولأنها تشكل دستورا وقانونا لا بد من استيعابه حتى يستطيع الإنسان أن يستفيد منه، فإذا أخذت قانونا وقرأت بعض مواده ولم تكمل قراءته كيف تستطيع أن تحكم، فقد يكون بعد هذه المادة مواد أخرى تقيدها أو تستثنى منها وهكذا قواعد النحو .

ولذا يجب أن يتعلم النحو مرة واحدة بصور متدرجة يؤخذ فيه في إحدى السنوات جميع مباحث النحو ولكن في صورة مجملة موجزة ، ثم ينتقل في السنة التي بعدها فيؤخذ النحو كله ولكن بصورة أوسع ، وهكذا يتدرج به الإنسان حتى يستطيع أن يطبقه، أما إذا أخذ المتعلم جزءا منه، كالمرفوعات في سنة ، ثم انتقل إلى السنة التي تليها ليأخذ المنصوبات أو المجرورات وقد نسي ما تعلمه في السنة الماضية ، ثم يطلب إليه أن يعرب الكلام ويفهم الجمل فإنه يعاني ما يعاني فتحدث الكراهة لهذا العلم الجليل الذي هو وسيلة من وسائل فهم كتاب الله عز وجل .

وقد كان علماء المسلمين يسلكون هذه الطريقة في كتبهم فالإمام الزمخشري كتب كتابا في النحو مختصرا أسماه الأنموذج ثم كتب كتابا أوسع منه سماه المفصل وكتب ابن هشام كتبا عديدة متدرجة من قطر الندى وشذور الذهب والمغني وما بعده وهكذا .

فإذا أخذنا أصغر كتاب في النحو وهو كتاب الأجرومية لنلقن هذا الصغير أن اللغة العربية فيها أسماء يعترىها الرفع وأخرى النصب وأخرى الجر وفيها أسماء وأفعال وحروف، فإنه يعلم أنه ملك أمرا يستطيع أن يحاكم به الأساليب والتعابير . وهذه الطريقة تحبب الناشئة بهذا العلم الذي اعتبره العلماء سلما للعلوم الأخرى واعتبروه وسيلة لفهم كتاب الله عز وجل ، فإذا بنا نعطيه لهذه الناشئة بطريقة تجعل حفظه عبئا عليهم لا يستطيعون

أن يستثمروه لأنهم لا يستطيعون أن يستوعبوه، إذ يطلب منهم أن يجمعوا بين معلومات مفرقة على خمس سنوات وأن تبقى هذه المعلومات مترابطة متصلة وأن يبقى الاهتمام بها مستمرا ، وهذا أمر فيه عبء ثقل وفيه تضييع للجهود .

وكذلك ينبغي أن تكون وسائل التعليم أو التوضيح مستمدة من التراكيب البليغة من النصوص الذي تشد هذا الإنسان إلى لغته وتبين له ضرورة تعلم هذا العلم، وأن نستبعد التراكيب الصناعية التي تجعل هذا العلم جافا، وبذلك نكون قد تعلمنا ما نعرب به القرآن كما نتعلم حفظه كما جاء في الحديث الشريف وكما جاء في الحديث الآخر الذي يقول :
" تعلموا من العربية ما تعرفون به كتاب الله ثم انتهوا " (١) .

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي وابن زنجويه .

أشرت فيما مضى إلى أن هناك علمين لا بد من إدراكهما والتعرف إليهما لفهم كتاب الله عز وجل وإدراك العلوم الشرعية والأخذ بزمامها، وهما أيضا علمان ضروريان للحفاظ على مقومات هذه الأمة وهي تراثها ولغتها، وبينت ما يختص بعلم النحو، وأشرت إلى أن العلم الذي يقترن به في الأهمية هو البلاغة ، والبلاغة ذلك العلم الذى قد يظنه بعض الناس أمرا تكميليا وأنه يحتاج إليه الشعراء والأدباء وإن بقية المثقفين في غنية عنه، وقد فات هؤلاء أن علم البلاغة مكمل لعلم النحو والصرف وهما عمدة العلوم العربية .

إن حياة اللغة بحياة أمرين : بحياة مفرداتها من جهة، وتراكيبها وأسلوب التعبير بها من جهة أخرى، وإذا كانت التراكيب لا تتم إلا بقواعد النحو فإن أساليب التعبير لا تتم إلا بالبلاغة، والبلاغة كما عرفها بعضهم هي ضبط طرق الاستعمال للكلام البليغ والتمرين على إفادة التعبير لأن يفهم الجميع، فالبلاغة هي أنك تخاطب كل إنسان بما يقتضيه حاله، وأن تقدم لكل مقام ما يتطلبه، فإذا كنت في مقام التأكيد أكدت، وإذا كنت في مقام الوصف وصفت وشبهت، وإذا كنت في مقام التجريد جردت .

وهكذا ندرك أن اللغة العربية لا تستقيم قوتها وجدارتها إلا إذا تناول الإنسان هذين الأمرين الأساسيين وهما النحو والبلاغة وإذا كان النحو يتناول

كيفية أخذ المفردات وتركيبها لدفع الخطأ ولتفادي البطء في الفهم فإن البلاغة تتصل بكيفية إسناد الكلام وأسلوب العرب في التعبير، فإذا أخذت اللغة العربية وجردتها من بلاغتها تكون كمن يترجم ترجمة حرفية، والترجمة الحرفية تخرج اللغة من بهائها وخصائصها، ولذلك عني العلماء بتدوين البلاغة وتتبع الأساليب وما فيها من جمال لفظي وما فيها من تصرف في طرق أداء العبارة وطرق التعبير كما هي في نفس المتكلم .

لقد كانت البلاغة أول ما نشأت مقترنة بالنحو، فقد أشار إليها سيبويه في كتابه، ثم تكلم عنها قدامة بن جعفر في كتاب نقد الشعر، وأسهب فيها الجاحظ في البيان والتبيين، وكان خاتمة المطاف فيها ما كتبه عبد القاهر الجرجاني الذي توفي في أواخر القرن الخامس وقد كتب في ذلك كتابين، والطريف في الأمر أن هذين الكتابين ما كانا إلا خدمة لكتاب الله عز وجل :

الأول منهما كان صريحا في عنوانه ومضمونه حيث سماه دلائل الإعجاز أي دلائل إعجاز القرآن الكريم، ونحن نعلم أن القرآن الكريم هو معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي تحدى بها العرب ليعين لهم أنه كلام الله عز وجل وليس كلام البشر، وقد تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا ، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله - وأقصر السور ثلاث آيات - فعجزوا .

والإعجاز القرآني إذا كان جليا واضحا في عصر الصحابة لأن من حاول أن يقارع القرآن الكريم ويضاهيه أتى بكلام غث كان نكالا عليه وخيبة له فإن هذا الإعجاز قد لا يدركه من جاء بعد العرب الفصحاء إلا بشيء من البيان ، وهذا ما أراده الجرجاني رحمه الله فقد تناول ما في القرآن من جوانب الإعجاز من بلاغته وفصاحته وأساليبه وأثبت بالبرهان والمقارنة وبما أشار إليه مما طرح في صدر الإسلام من منافسات ومناظرات

من ادعى النبوة، فبين كيف أن ذلك الكلام منحط عن أدنى وجوه البلاغة، فضلا عن أن يبلغ أرقى البلاغة وهو كتاب الله عز وجل .

أما كتابه الآخر، وهو أسرار البلاغة، فقد وضعه في قواعد يحتكم إليها من يريد أن يعرف بلاغة الكلام من انحطاطه .

إن تفسير كتاب الله عز وجل إنما بدأ الناس به من خلال المأثور، ومن خلال تفسير القرآن بالقرآن، وتفسير القرآن بالحديث، ثم تطرقوا إلى تفسيره بالعربية فكان كتاب ابن جرير وإن تمام التفسير إنما نشأ عندما انبرى الإمام الزمخشري، وهو الإمام الآخذ بناصية اللغة العربية في شتى علومها وبلاغتها ونحوها وغريبها وكان له كتاب أساس البلاغة، هذا الإمام الجليل أراد أن يفسر كتاب الله عز وجل وأن يجمع إلى تفسيره بالعربية التي سبقه إليها من سبق أن يفسره بالبلاغة، فكانت له لمحات وروائع في ذلك الكتاب، ونفع الله به وخدمه الناس وتقفوا أثره، فالبلاغة ما هي إلا وسيلة لفهم كتاب الله عز وجل وما هي إلا استكمال لمقومات هذه اللغة .

والملاحظ أننا أهملنا هذا العلم وتجنّبناه لما داخله في آخر زمن التأليف فيه من تعقيد ، وما غلب على الكاتبين فيه من أخذ بالصنعة، ووقوف عند الألفاظ، ولهذا سبب تاريخي لا بد من الإشارة إليه، وهو أن اللغة العربية ليست لغة العرب وحدهم وإنما هي لغة المسلمين وقد دخلت شعوب كثيرة في الإسلام أو دخل إليها الإسلام ، وكان من إنصاف وإخلاص هذه الشعوب أن تخلت عن لغاتها، وإن لم تتخل عن النطق بها فقد تخلت عن الاهتمام بها ورام هؤلاء أن يتعلموا هذه اللغة وظنوا أن في إمكانهم أن يقيسوا هذه الأمور قياسا، فتعلموا قواعد النحو وكان الأمر فيها يسيرا لأن قواعد النحو تتصل بالمفردات وبعض التراكيب، ولكنهم حينما توغلوا إلى أساليب

التعبير خافهم الحظ، فأخذوا تلك الكتب التي كانت في أولها مرتبطة بالنصوص وكانت تقوم على حفظ الأقوال الفصيحة وتحليلها وإذا بهم يحاولون أن يقعدوا هذه الكتب ويجعلوها مقاييس، وإذا كانت المقاييس في النحو سائغة فإنها في البلاغة شيء آخر، فقد كتب الإمام السكاكي كتابا سماه مفتاح العلوم وتناول فيه النحو والصرف والبلاغة وكان كتابه هذا عامرا بالشواهد والنصوص البليغة، ثم اختصره القزويني، وجاء بعده من شرح هذا الكتاب وبدأ يدخل التراكيب الصناعية، وما أضر باللغة إلا تلك التراكيب التي تنحت نحتا مقطوعة عن بيئة العرب وبعيدة عن استعمالهم، وإنه لا يعين على البلاغة وعلى إدراكها إلا حفظ الأقوال الفصيحة، وفي الحق لا أنفع ولا أرفع من حفظ القرآن الكريم، فمن أراد أن يكون بليغا على السجية وعلى السليقة فليكثر من قراءة القرآن الكريم لإدراك أسرارها، مستعينا بالتفاسير التي أشرت إليها .

مضينا شوطا في التعريف ببعض العلوم الشرعية وبعض العلوم العربية التي لا بد منها للمسلم إماما أو تخصصا أو إدراكا ، وإذا كان من حق العلم - الذي أمرنا الله عز وجل أن نزداد منه - أن ننوه بشيء منه فإن علينا أن نشير إلى مبدأ مهم جدا، وهو أن العلوم الأخرى الدنيوية لها من حوافز الحياة ما يكفيها وهذه سنة التشريع ، بخلاف العلوم الدينية .

ولهذا بين العلماء أن القرآن الكريم مليء بالحض على ما لا تقدم عليه النفس من طبيعتها، فنحن نقرأ في إقامة الصلاة كثيرا من الآيات، وكذلك في الزكاة، وكذلك في الإيمان ولكن الأمور التي في النفس دواع لها يأتي ذكرها على سبيل الوصف والإشارة لتكون في ضمن المباحات فليس في القرآن ما يحضنا على الأكل مثلا، لأن في النفس ما يدعو إليه وإنما إذا أقدم الإنسان على الإسراف فيه، أو الامتناع منه فإنه يواجه بنصوص أخرى تحذره من الإسراف ، أو من إلقاء نفسه إلى التهلكة .

وهكذا العلوم، فالعلوم الدنيوية التي تقتضيها ضرورة الحياة ويحتاج إليها الإنسان ليعيش حياة سعيدة لكي يؤدي ما أمره الله عز وجل ، فإن هذه العلوم هي عون أيضا على عبادة الله فما هي إلا وسائل . وقد رأينا أن للوسائل حكم المقاصد وأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وإذا كان الإسلام قد اعتبر المصالح أساسا من أسس الدين لأنها ترجع إلى حفظ الأمور التي اتفقت الشرائع على الحفاظ عليها وهي حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ النسل، وحفظ المال. هذه الضروريات الخمس جاءت كل الشرائع بالأمر بها والحفاظ عليها وأكثر ما شرع الله عز وجل إنما هو لتحقيق وجودها أو لتحسين أحوالها أو لإيجادها في صورة كاملة، فتلك الأمور الضرورية والتحسينية والحاجية إنما هي من تمام عبادة الله عز وجل.

ولذلك نجد أن المسلمين حينما علموا العلوم الشرعية في المساجد وفتحوا لها تلك الجوامع المشهورة الكبيرة التي ما هي إلا جامعات رأوا أن الحاجة تقتضي أن تعلم هذه العلوم الأخرى ، فلما رأوا أن تعليمها وما تحتاج إليه من تجارب ومختبرات لا يناسب جو المسجد، جو العبادة والسكينة والهدوء، افتتحوا لذلك المدارس، وكانت هناك دار الحكمة التي أنشأها المأمون والمدرسة النظامية التي أنشأها نظام الملك فهذه المدارس ألحقوها بالمساجد وكان فيها مكتبات تشتمل على شتى العلوم، فكانت هي النبع الذي يستقي منه الناس وكانت هي أصل الصناعات وأصل الخبرات التي بنى المسلمون فيها حضارتهم، فهذه الحضارة التي بناها المسلمون لم تنشأ من علوم الشريعة مباشرة ولا من علوم اللسان العربي أصلا وإنما نشأت من تطبيق علوم الشريعة، فعلموا الشريعة تقضي بأن يكون المسلم قويا، فالمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، فكان من الحفاظ على الشريعة ومن كمال علومها أن تستكمل تلك المعارف والخبرات حتى يكون للناس عدتهم، وحتى يكون للمسلم صحته وموطنه وسكنه ومرافق حياته .

على أن هذه العلوم التي هي من قبيل الوسائل مرت بحقبة خطيرة على المسلمين ولكن الله عز وجل أوجد من الضمانات والسدود ما كفى المؤمنين شرها ، كانت تلك العلوم موروثة ومكتوبة من خلال عقائد وبيئات وأفكار

اختلطت بها، فقد كتبت هذا العلوم عند اليونان وترجمت كتبها وكان المسلمون في غاية الوعي والنباهة حيث أخذوا هذه العلوم وخلصوها مما لابسها مما ليس منها، فالعلم يدعو للإيمان، وإذا كانت بعض العلوم قد ظهرت في صورة مضللة تخرج بعض الناس عن عقائدهم فإن ذلك أمر دخيل على هذه العلوم، وهي شبهات تحوم حولها ويجب تجريدها منها .

وقد ذكر المؤرخون أنه إلى جانب عملية الترجمة كانت هناك عملية رقابة، وهي رقابة حكيمة و لم تكن سلاحا مسلطا على العلم، وإنما كانت مصفاة تخرج الزيف الذي اختلط بالعلم، يذكر ابن خلدون أنه حينما ترجم علماء المسلمون كتاب الفلاحة النبطية، وهذا الكتاب هو أحد فروع العلوم الطبيعية، وهو كتاب يوناني يتناول أحوال النباتات وأسباب تنميتها وكيف تدفع آفات الزراعة عنها، كان في هذا الكتاب ما هو خارج عن حدود الديانة فاقترضوا عند ترجمته على ما ينفع ولا يضر، فقد كان في هذا الكتاب نسبة التأثير إلى الطبيعة فكلما تناول المؤلف أمرا من الأمور سواء كان هذا الأمر مفيدا أو ضارا في نشأة تلك النباتات أو في تلفها كان ينسب ذلك إلى الطبيعة، ولا ينسبه لله عز وجل الخالق البارئ المصور الذي له الأسماء الحسنى، فما كان من شأن المسلمين إلا أن جردوا هذا الكتاب وأمثاله من تلك الوثنيات والخرافات، وأخذوا هذا العلم مأخذه الصحيح .

وهناك خبر آخر وهو أن المأمون كلف اليزيدي بمطالعة كتب الجاحظ في الإمامة ثم طالعها هو نفسه ليرى ما فيها .

هذه الرقابة الرفيعة لا يقصد منها الحجر على عقول العلماء وإنما يقصد منها وضع فيصل بين الحق والباطل لقطع دابر الاستغلال من أناس يحملون أفكارا خبيثة ثم يأتون إلى هذه العلوم النظيفة فيشوهونها ويلبسون على الناس أمر دينهم ، فالعلم يدعو للإيمان ومن هنا كان قول الله عز وجل :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾^(١) . وقد جاءت هذه الآية الكريمة في معرض تعداد ما خلق الله عز وجل وما ذرأ في هذا الكون، مما يدعو إلى توحيد الله الخالق ودفع الشبهات وعدم الوثنية التي بثتها علوم اليونان، والتي جعلت المسلمين يتحاشون من كثير من العلوم لأنه كان فيها نسبة التأثير من الطبيعة أو كانت مختلطة بالوثنيات وكان من الصعب حينئذ أن تخلص منها فضربوا صفحا عن هذه العلوم كلية لكي يحفظوا عقائد الناس، فإن حفظ الدين مقدم على غيره .

وهذا ما يجب أن ينهجه المسلمون اليوم في أخذ هذه العلوم التي مرت بالمسلمين فترة قعدوا عن مواصلة البحث فيها ثم أصبحت قيادتها وزمامها لغير المسلمين، وبدأت تعود إلى المسلمين مشوبة اختلط فيها الحق بالباطل لأن فيها النظريات التي يلبس بها على عقائد المسلمين حين تعلم لناشئتهم، فإن هذا أمر خطير يجب أن تجري نفس العملية فيؤخذ العلم نقيا من الشوائب وتبعد عن هذه الناشئة ما يكدر عقيدتها وما يخل بإيمانها، فإذا كانت هذه البحوث لها مجال فإن مجالها بعد أن تستقر نفوس هؤلاء الناشئة بالإيمان وأن يصبح عند الطالب أو الناشئ مقدرة البحث والفحص والتمييز أي في المستويات الدراسية العليا التي يستطيع فيها الدارس أن يستخلص الحق من الباطل و يميز الطيب من الخبيث .

إن من الواجبات الملحة وضع الخطط المحكمة التي تبين كيف يجب أن تصاغ هذه العلوم صياغة إسلامية كما ترجمت ترجمة إسلامية وكما بنيت بناء إسلاميا كانت فيها جهود العلماء المتدينين الذين اتخذوا من هذا العلم منفعة لحياتهم ولأخراهم فلا خير في علم ينفع الإنسان في حياته ولكنه يلقي به سوء المصير .

إن الإسلام كما يحض على تعلم علوم الشريعة يحض على تعلم علوم الحياة الأخرى، ويجعل من واجب المسلم أن يكون قويا وصحيحا وقائدا لغيره من الأمم والشعوب، وهذا أمر إذا كان معروفا ومدركا لدى المختصين فإن ما وقع من غيبة عن تراثنا وبعد عن حضارتنا وعلومنا جعل بعض الناس يغفل عن مآثر المسلمين في العلوم .

إن المسلمين هم الذين كانوا واسطة هذا العلم، فقد كانت هذه العلوم معرضة للاضمحلال وكانت آخذة في الانحطاط بعد أن أصبحت نظرية لا تفيد في حياة الناس إلا قليلا، فجاء المسلمون وأخذوا هذه العلوم ونقلوها نقلا آمينا بعد أن نقدوها وطوروها، وكانوا جسرا لمن بعدهم ولكنه جسر ينمو ويزيد، إنه جسر واع متحرك، فلم يكن المسلمين مترجمين كما زعم أعداء الإسلام من بعض المستشرقين الذين طاب لهم أن يصفوا المسلمين بأنهم كانوا نقلة، وأنهم كانوا أوعية تحمل هذا العلم لا تعرف ما فيه ولا تطوره .

وإذا كان بعض هؤلاء قد غمطوا المسلمين حقهم فإن الله عز وجل قبيض من العلماء الغربيين أنفسهم من نطق بكلمة الحق، والحق ما شهد به الأعداء، وإذا كان بعض المستشرقين قد أنصفوا العرب المسلمين حقهم فإن ذلك كان عرفانا ولم يكن إطراء ولا تزلفا، فإنهم في هذه العصور التي بكل أسف لا يوجد بين المسلمين من ينهض لهم فيخطئهم إذا أخطؤوا،

أو يرد عليهم إذا تجاوزوا الحقيقة، كان منهم الإنصاف وكان منهم كارل بروكلمن ذلك العالم الذي يعرفه المشتغلون بالتأليف فهو عالم الببلوغرافيا الذي كتب عن العلوم وتناول إحصاء الكتب وشرح تلك الكتب، كان مضطرا - وهو يؤرخ للأدب العربي، أي للثقافة العربية - أن يبين مآثر العرب وجهودهم في تلك العلوم، وكتابه هذا بالألمانية .

يقول بروكلمان : كانت تلك العلوم موجودة عند اليونان والرومان وكان أول ما التقى المسلمون بهذه الكتب أيام العباسيين (ويقصد من ذلك أن ذلك الاهتمام الشديد إنما نشأ أيام العباسيين وإلا فإن من العلوم أن الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية الذي عزف عن الحكم وأقبل على العلم كان معنيا بهذه العلوم الطبيعية) فإذا هؤلاء المسلمين يترجمون تلك الكتب وكان خلفاؤهم - وبخاصة المأمون - مولعين بالاهتمام بها وتشجيعها .

والجدير بالتنويه أن النهضة شملت شتى أنحاء العلوم :

ففي الفلسفة نشأت عند مؤلفي المسلمين فلسفة بدأت بظاهرة خلقية خاصة، كما يتضح ذلك في مؤلفات الجاحظ الذي جعل جل اهتمامه الناحية العلمية، ثم كان معاصره يعقوب الكندي الملقب فيلسوف العرب، ثم كان بعد الكندي فلاسفة آخرون تناولوا تلك العلوم، فكان منهم الفارابي .

وكان لعلماء المسلمين في الرياضيات جهود كبيرة فقد أخذوا ما كتبه إقليدس وأتموا من بعده، فكان هناك ابن الهيثم والخوارزمي وأولاد موسى بن شاكر الذين عنوا بعلوم الهندسة والفلك والصناعات الفنية وقياس السطوح وكانت لهم فيها مؤلفات عديدة، كما امتاز الرياضي الكبير ثابت بن قرة بأبحاثه القيمة في نظرية الأرقام حتى أطلق عليه بحق أنه كبير رياضي ذلك العصر، وفي أواخر تلك العصور وضع محمد الكرخي مؤلفا في الحساب

لخص فيه أهم ما وضعه المؤلفون السابقون في هذا العلم وأهداه إلى وزير البويهيين فخر الملوك فكان له أثره من التشجيع والحث .

أما في الفلك فقد نشطت جهود المسلمين بعد اتصالاتهم بالإغريق والهنود فأخذوا من العلوم الفلكية مثل ما نقلوا عنهم من العلوم الرياضية فقد ترجم الخوارزمي كثيرا من الكتب المؤلفة في هذا العلم، كما أمر المأمون بتصحيح خرائط بطليموس الفلكية بعد الأرصاد التي قام بها في بغداد ودمشق ووضع طريقة للقياس بالدرجات، وتمكن المسلمون من تحديد أماكن الأجرام السماوية ومداراتها بواسطة آلات القياس والرصد التي ابتكروها لذلك، وبعدئذ جاء أحمد الفرغاني فوضع كتابا في العلوم الفلكية نقل بعد ذلك إلى اللاتينية وكان أهم المراجع في العصور الوسطى في أوروبا، وإن أبا معشر تلميذ الكندي له أثر كبير . وهذه الجهود الفلكية انتهت إلى تأليف السفر الضخم الذي وضعه علي بن أبي الرجال بشمال إفريقية ونقله علماء أوروبا إلى اللغة اللاتينية سنة ١٥٥١ م .

أما في الطب فلا يحتاج إلى كثير بيان فقد كانت مؤتمرات الطب الإسلامي بيانا لجهود العلماء المسلمين في هذا المجال واطلع الناس على غرائب من سبق المسلمين في علم الطب بحيث جعلوا آثار أبقراط وجاليلوس شيئا مبدئيا بعدما توصل ابن النفيس وأبو بكر الرازي وابن سينا وابن رشد إلى كشف وبحوث وتشخيص لأمراض كانت مجهولة ووضع علاج لها، وهذا جعلهم ينشئون طباً متميزاً .

ثم كان لهم في الكيمياء جهود كثيرة وكان هناك جابر بن حيان تلميذ الأمير الأموي خالد بن يزيد بن معاوية، وكان علم الكيمياء في تلك العصور يعتبر أسراراً غامضة، كان مقتصرًا على تحويل المعادن الخسيسة إلى نفيسة،

ولكن العلماء المسلمين طوروا هذا العلم وجعلوه معقدا لكثير من الصناعات وجعلوه وسيلة لهم في السلم والحرب .

وهكذا كانت مآثر العرب في العلوم المدنية وعلوم الحياة برهانا عمليا على أن الازدياد في العلم لا يقتصر على علوم الشريعة وإنما يجب أن يوجد في كل مجال وهذا مصداق أمر الله عز وجل لنبيه وللمسلمين (وقل رب زدني علما) .

تكلّمنا فيما مضى عن العلوم الشرعية ووسائلها من العلوم العربية وعن نمط آخر من العلوم التي يحتاجها المسلمون في حياتهم، ورأينا كيف أن العرب المسلمين كانت لهم مآثر وفضائل في تلك العلوم بأجمعها ولا سيما علوم الحياة، فقد سبقوا فيها شوطا بعيدا وحققوا فيها تقدما ملموسا ورأوا أن تكون لهم ثقافتهم العلمية المتميزة تلك الثقافة التي لا تتنافى مع الإيمان ولا تدع مجالا لدخول الشوائب، بل صبغوا تلك العلوم صبغة عربية إسلامية.

وإن من الملحوظ اليوم بالنسبة للمسلمين أنهم تأخروا في هذه العلوم، وهذا التأخر إما أن يكون على سبيل التبعية لغيرهم فيها، وإما أن يكون في أخذهم ثمرات تلك العلوم دون أن تتوفر لديهم وسائلها وأهليتها وملكاؤها، فما سبب هذا التأخر وما سبب التقدم العلمي السابق؟ إن التقدم العلمي السابق للمسلمين كانت له أسباب وعوامل كثيرة لا يمكن ربطها بأمر دون آخر ولكن كل ما يعرفه العالم أن المسلمين كان لهم قصب السبق فيها، وقد كانت من تلك العوامل أمور فقدناها في هذه الأيام، فقد كان إخلاص الطرفين العالم والمتعلم، وكان استغراق الوقت كله في العلم، وكانت بساطة الأحوال الاجتماعية والتقلل من العيش، كل ذلك كان سببا من أسباب حوزهم القدر المعلى في تلك العلوم ولكن هل يصلح أمر الناس على هذا في كل عصر وفي كل مكان؟ لابد من استحضار الحكمة المعروفة: لا تكرهوا أبناءكم على أخلاقكم (أي عاداتكم) فإنهم خلقوا لزمان غير زمانكم .

إن هناك أمورا ينمى إليها هذا التأخر العلمي الذي نشعر به وتلك التبعية المطلقة في العلوم لغير المسلمين، ومن أهم هذه الأسباب ذلك الوقوف المفاجئ الذي عرض للعلوم عند انطفاء مدنية الدولة الإسلامية بسبب الفتن، وقد وقفت جهودهم عند المتقدمين واغتروا بمواصلة التأليف في العلوم، فإن التأليف أصبح صورا مكررة وتداخلت العلوم بعضها ببعض لفقد التمييز والملكة التي تستطيع أن تتصور العلم تصورا صحيحا، كما أنه طرأ الإعجاب بآراء المتقدمين والسابقين وراج المثل الذي يقول : (ما ترك الأول للآخر شيئا)، وقد قال بعض المحققين : ليس أضر على العلم من هذه المقالة، وقابلوها بمقالة أخرى معاكسة : (كم ترك الأول للآخر)، ومن هنا ألف الإمام الشوكاني كتابا جليلا سماه " البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع . " وأثبت بالأمثلة العديدة التاريخية أنه بعد ذلك القرن وبعد انقضاء عصور المتقدمين وجدت مواهب كثيرة، وكانت هناك نبوغات عديدة، فإن هذه الأمة الإسلامية كالطر أو الغيث : لا يعرف أوله خير أم آخره .

كما أنه انقطع التمرين العملي وأصبحت البحوث نظرية، فقد أولع المتأخرون بالبحث، وأصبح أكثر ذلك البحث لفظيا حتى إنك ترى كثيرا من أبحاث العلوم التطبيقية تسربت إلى كتب العلوم الأخرى كما في علم الكلام الذي هو علم عقلي بحث لا مجال فيه للمحسوس .

ومن هذه الأسباب التي أثرت ودعت إلى تأخر العلوم الطموح للمشاركة في جميع العلوم من أكثر المتعلمين، والمشاركة والإمام شيء طيب ولكن لا يجوز أن يكون على حساب التخصص، فإن موطن المشاركة ومحلها المناسب هو بعد أن يوجد في الأمة متخصصون في كل علم وكل مجال حتى تجدد الأمة كفايتها، فإذا تمكن الإنسان من ناصية علم وأصبح قادرا على أن يقدم خدمة للأمة فيه فسح المجال له للمشاركة والإمام، أما أن يأخذ الإنسان

من هذه العلوم أطرافا فلا يمهـر في واحد منها فإن ذلك هو سبب التأخر ولذلك قالوا : صاحب علم يغلب صاحب علوم .

هذه الأسباب وأسباب أخرى معروفة جعلت التأخر سمة في هذه الأمة بعد أن كانت متقدمة سابقة أشواطاً، وبعد أن كانت هي المعلمة ولها القيادة والريادة في شتى أنواع العلوم .

وإذا كان هذا التأخر تربوياً وتعليمياً فإن هناك أسباباً فكرية للتأخر . إن التأخر العام في المسلمين في نهضتهم وحياتهم وبعدهم عن دينهم وغفلتهم عما تتطلبه أنظمة الحياة التي تبدلت في المجال السياسي والاجتماعي والاقتصادي كل هذا التغير لم يواكبه المسلمون، فقد تغيرت طرق الحياة وظل المسلمون في سبات عميق وكانت الخسارة مزدوجة، صارت هذه الأمة عالية على غيرها، وحرمت العلوم من اللمسات الإسلامية التي تعطي هذا العلم حقه فتجعله داعياً للإيمان ولا تجعله ألوبة في أيدي ذوي الأهواء والأمزجة يصرفونه كما يشاؤون، ذلك أن الثقافة لها تأثير كبير بالظروف، فإذا فقد الاستقرار والأمن والكفاية المعاشية فكيف يفكر الإنسان؟ ومن هنا يقول الإمام الشافعي رضي الله عنه : لا تستشر من ليس في بيته دقيق ، أي من لم تكن لديه كفايته ولم يكن آمناً في سربه مطمئناً على حياته عنده قوت يومه، فكيف تطلب منه أن يصرف ذهنه وفكره إلى الإنتاج العلمي والابتكار والكشف، إذ لكل شيء أسبابه، ولكل أمر دواعيه، وعلينا أن نزيح هذه الأسباب التي أدت إلى تأخر المسلمين في العلوم وجعلتهم إمعة و أتباعاً مع أن هذه الأمة هي الأمة الوسط التي يستشهدها الله على الناس، وهي خير أمة أخرجت للناس تفودهم لكي لا يأخذوا علم الحياة الدنيا وينسوا الآخرة: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١) .

سبق الحديث فيما مضى عن أسباب تأخر المسلمين في علوم الحياة وتبعيتهم لغيرهم من الأمم والشعوب، وهو غير ما عهدت عليه هذه الأمة، فإذا كان قد تم وصف الداء فكيف يكون الدواء؟ إن الدواء لا ينبغي أن يكون مجملا وإنما يجب أن يكون مفصلا، إن الدواء يكمن في أمور كثيرة، ووسائل عملية تؤدي إلى نهضة هذه الأمة في هذا الجانب .

إن أول هذه الوسائل أن تدون العلوم التطبيقية باللغة العربية بحيث تصبح لغتنا غنية بمؤلفاتها فيها، حيث إن الحاجة ماسة إلى كتب عربية في كل فرع من فروع العلم، ففي حين أن كل لغة من اللغات الحية غنية بكتبها ومؤلفاتها العلمية نجد أن لغتنا العربية تتميز بفقرها المدقع في المؤلفات العلمية، بل لا يكاد يوجد كتب أساسية في فروع العلم يمكن اعتبارها مرجعا كافيا يستغنى بها عن المراجع الأجنبية والكتب التي تظهر يكون مستواها عادة منخفضا لا يزيد عن مستوى كتب التعليم ويترتب على هذا أن تصبح هذه العلوم مهنا أو حرفا لبعض الناس والذي نعلمه من سيرة الإسلام والمسلمين أن العلوم إنما هي معارف وهي ثقافة تنتشر في الأمة بلغتها وبمفاهيمها وأفكارها وهذا يتيح أن يكون الكل مسهما في هذه العلوم سواء كان مختصا أو غير مختص، فإذا كان مختصا فإنه يولد فيها ويزيد كشفها، وإذا لم يكن مختصا فإنه يبرمج هذه العلوم وينقلها إلى العمل والتطبيق .

إن من المؤكد أنه إذا لم تنقل هذه العلوم إلى لغتنا بقينا عالمة على غيرنا من الأمم، ليس عالمة في الكشف والإنتاج فقط ولكن عالمة في التلقي والتطوير، وتبقى دائرة العلم محصورة في النفر القليل الذين يستطيعون قراءة الكتب الأجنبية العلمية وفهمها، وحالنا اليوم تشبه ما كانت عليه حال المسلمين في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين، أو ما كان عليه حال أوروبا في العصور الوسطى، لقد تنبه المسلمون إلى ضرورة نقل علوم الإغريق إلى لغتنا العربية وقام الخلفاء والأمراء بتشجيع العلماء على الانقطاع إلى النقل والتأليف. ولعل الجميع يذكرون المكتبة الكبرى التي كانت أيام الخليفة المأمون والتي كانت تسمى دار الحكمة.

إن نقل هذه العلوم إلى لغتنا يعيد إليها وإلى أمتنا مجدها العلمي، إن هذا النقل يتيح مهمة تشجيع التأليف والتدوين. والطريقة المثلى أن تعهد الدول القادرة إلى العلماء في كل فرع من فروع العلم بنقل الكتب العلمية وتأليفها وأن تقوم هذه الدول بطبعها ونشرها ولا يجوز أن يبقى هذا مجهودا فرديا.

إن الواقع الآن أن العناية الكبرى توجه إلى ترجمة الكتب في الآداب الغربية والنتاج القصصي والمسرحي والذي يطغى على تراثنا الأدبي الذي نعتز به، وإن الأولى أن توجه الهمم وتصرف الجهود إلى الجوانب العلمية التي نفتقدها ونفتقر إليها.

والملاحظ أيضا أن جهود التعريب التي تبذلها الجامعات العلمية تكون خطوة عسيرة لأنها تعمل في فراغ تعتمد إلى هذه الكلمات الأجنبية وتضع لها المصطلح المقابل دون أن يكون هناك حركة علمية تتولد عنها هذه المصطلحات، واللغة العلمية وليدة التفكير العلمي، والمصطلحات العلمية في اللغات الأوروبية إنما نشأت بهذه الطريقة ونتجت عن نمو العلم والتأليف، ومن العبث أن يقوم مجمع بفرض المصطلحات على المؤلفين فرضا إنما تأتي

مهمة المجامع بعد مهمة المؤلفين لا قبلها ، فالجمع اللغوي يجمع ما ورد في الكتب العلمية من مصطلحات ويدونها ويفسرها ويصححها عند الحاجة. وهكذا تؤدي هذه المصطلحات إلى تطور اللغة ونموها .

والوسيلة الثانية من وسائل النهضة في العلوم هو أن نثير العلاقة القوية بين حياتنا العلمية الماضية والحياة المستقبلية التي نرمي إليها، هذه العلاقة لا تتوثق بلمحات تاريخية بحتة، وإنما بتحريك الثقافة العلمية التي ترتبط بتاريخ التفكير العلمي لهذه الأمة الإسلامية، إن هذه الأمة الإسلامية قد توصلت إلى كثير من الآراء والنظرات العلمية والكشوف في سائر ميادين البحث بعضها ولدته وبعضها نقلته وهذبته واستساغته من آراء غيرها ودخل في صلب المعرفة الإسلامية على مر العصور والأجيال، وإن من واجبنا أن نربط حياتنا العلمية الماضية بمستقبلنا فيكسبنا ذلك قوة وحياة وإلهاما .

إن الوسيلة العملية لتحقيق هذا هي في أمرين :

أن ننشر الكتب العلمية التي وضعها المسلمون والتي نقل عنها الغربيون ككتب الخوارزمي وأبي كامل في الجبر والحساب، وكتب ابن الهيثم في الطبيعة، وكتب البيروني وابن رشد وابن سينا وغيرهم من قادة التفكير العلمي وعظماء الباحثين المسلمين المدققين، هذه الكتب موجودة الآن ولكنها حبيسة المكتبات وأسيرة المتاحف ، وإن من واجب المسلمين أن ينافسوا غيرهم فيها . إن الغربيين يعتنون بهذه الكتب ويقومون بترجمتها وشرحها والتعليق عليها وهذا واجب إسلامي يجب أن لا نقصر فيه .

الأمر الثاني أن نمجد جهود السلف من علمائنا وباحثينا فيكون هذا حافزا للاقتداء بهم وتتبع خطاهم، وقد بذلت جهود قليلة جدا في هذا السبيل ويجب تنميتها وإعظامها حتى يكون لها أثرها، فمثلا هناك الكشوف الكثيرة في الفلك سبق إليها العلماء المسلمون ، منها إدخال خطوط التماس

في الحسابات الفلكية ، ووضع الجداول لحركة الكواكب وهو ما يسمى بالزيج ، وتحديد سمة الشمس تحديدا دقيقا وتدرجه في النقص ، وتقدير تقدم الاعتدالين تقديرا مضبوطا، وكان لهم أول تحديد مضبوط لمدة السنة .

كما أنهم قدموا أمورا أخرى في العلوم الأخرى التي أشار إليها أحد علماء الغربيين وهو جوستاف لوبون في كتابه " حضارة العرب " فقد أشار هذا العالم إلى أنه في العلوم الطبيعية كان لعلماء المسلمين نظريات ومعلومات عالية في علم الطبيعة في نظرية البصر، واختراع أجهزة آلية من أبداع ما يكون، واكتشاف أهم الأجسام التي تتصل بالكيمياء مثل الكحول والحامض الآزوتي والحامض الكبريتي، وكان أهم الأعمال الأساسية في علم الطبيعة كالتقطير، وتطبيق علم الكيمياء في الصيدلة وفي الصناعة واستخراج المعادن وصنع الفولاذ والصباغة وكان لهم في العلوم الطبية أمور كثيرة معروفة .

هذه الكشف والأبحاث لو وجهنا إليها الأنظار، وكشفنا عنها الغبار، ونوهنا بها في المواسم والندوات والمؤتمرات، ونشرنا الكتب التي اشتملت عليها نكون قد أوجدنا أشد الحوافز للناشئة وللباحثين ليصلوا الماضي بالمستقبل ويطوروا هذا الحاضر وهو ما نصبو إليه والله من وراء القصد .

نتحدث الآن في أمر تردد في بعض الكتب وهو تقسيم العلم إلى نافع وغير نافع ، وكان لهذا التقسيم أثره في الحملة على بعض العلوم ولا سيما العلوم التي لا تتصل مباشرة بالدين . إن هذا التقسيم إنما كان مثار شبهة على الحضارة الإسلامية، ولا بد من دفعها من خلال البحث في جوهر هذا التصنيف فقد ذهب بعض العلماء يصنف العلوم فيقسمها إلى علوم تتصل بالدين وعلوم تتصل بالدنيا مع تقريرهم بوضوح أن تعلم العلوم كلها فرض على هذه الأمة على الكفاية، فكيف يكون العلم نافعا وغير نافع في ظل ما ورد في الحديث الشريف من الاستعاذة من علم لا ينفع ؟ ومع أن بعض شارحي هذا الحديث قرر أن من العلم علما نافعا وعلما غير نافع ، فقد حسم الموقف الإمام عز الدين بن عبد السلام الذي كان يسمى سلطان العلماء، يقول هذا الإمام : " العلوم كلها شريفة وإنما تختلف رتب شرفها باختلاف رتب متعلقاتها " . فهذه العلوم ليس منها علم غير نافع فإن الله عز وجل خلق هذه العلوم وجعلها مفيدة للبشر وعلمهم إياها : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ ^(١) . ومع هذا قد يكون العلم غير نافع، إذا استخدم في وجوه ضارة ماديا أو معنويا فيما إذا قصد به الإنسان التشدد ، وأن يكون مباحة للعلماء ومجارة للسفهاء وجمعا لوجوه الناس إليه، فالعلم في أصله كله نافع وإنما يفسد بفساد الأغراض ولذلك قد عد العلماء العلوم كلها على

(١) سورة البقرة / ٣١ .

صعيد واحد ذكروها على قدم المساواة وطلبوا من الأمة الإسلامية أن تهتم بهذه العلوم .

ولا يخفى أن بعض العلوم تتمحض للشر . وقد تحدث أيضا لكشف الشر وقد ذكر الإمام الغزالي السحر والطلسمات والشعوذة والتليسات كمثال للعلوم غير النافعة ، ومع هذا بين هو وغيره أنه إذا تعلم الإنسان شيئا من هذه العلوم ليكشف ما يحيق به، وليدفع الأذى والبأس الذي ينزل به من مثل هذه العلوم فإنه يكون كما قال القائل :

اعرف الشر لا للشر لكن لتوقية
ومن لم يعرف الشر من الخير يقع فيه

وبعض العلوم التوغل فيها والتكلف يعتبر عبئا على الإنسان وهذه العلوم أشار إليها الحديث الشريف منها علم الأنساب، ومنها علم النجوم، ومنها بعض علوم اللسان التي يتعمق فيها الإنسان يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) : " تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم ثم انتهوا، وتعلموا من العربية ما تعرفون به كتاب الله عز وجل ثم انتهوا، وتعلموا من النجوم ما تهتدون به من ظلمات البر والبحر ثم انتهوا . " هذا الحديث الشريف فيه إشارة إلى العلم غير النافع .

ومن الناحية الأخروية العلم غير النافع هو الذي لا تعمل به لأن هذا العلم يكون حجة على الإنسان ويكون مضیعة لوقت الإنسان، فإذا تعلم الإنسان ما لا يستفيد منه بأن يختزنه في دماغه دون أن يكون له تطبيق عملي فإنه يكون قد أضاع على نفسه فرصة تعلم علوم أخرى نافعة .

(١) رواه أحمد في مسنده والترمذي .

ومن هنا كان لكل علم حد لا يتعداه ولا يقصر عنه، فبعض العلوم نظرية وبعض العلوم عملية وقد أشار ابن ساعد الأنصاري وهو ممن كتب من إحصاء العلوم وتصنيفها إلى أن لكل علم حدا لا يتعداه ولا يقصر عنه، وذكر مثالا لتعدي الحدود المرسومة للعلم أن يقصد الإنسان إقامة البراهين على علم سبيله النقل، كعلم النحو، وأن يعمل العكس وهو أن يقنع بالجدال والدراسة النظرية في علم سبيله الحس والحركة كعلم الهيئة وعلوم الطبيعة .

والخلاصة أن التطبيق العملي هو الذي يجعل العلم نافعا لصاحبه . أما إذا ظلت هذه العلوم نظريات وكان الغرض منها المفاخرة والمكاثرة فإنها تكون عبئا و حجة على صاحبها، وهذا سبيل يجعل العلم غير نافع .

ثم أن بعض العلوم التي تطرق إليها العلماء وصفوها بأنها غير نافعة، والسبب في هذا ما لا بس هذه العلوم واختلط بها مما ليس منها ذلك أن بعض العلوم لم تكن وليدة في الإسلام وإنما نقلت من أمم وشعوب أخرى، وكان الأمان والضمانات التي وضعت لتكون هذه العلوم نقية هو الرقابة التي قام بها علماء المسلمين ، فجردوا هذه المقولات العلمية مما اختلط بها ومما تسرب إليها مما هو دخيل عليها ، وهذا الواجب علينا الآن أن نقوم به، فإننا نلمس أن قسما من العلوم التي يتعلمها المسلمون (علوم الحياة) أكثرها منقولة ومترجمة أو مأخوذة بلغاتها، وهي مصوغة صياغة غير إسلامية فتجد في كثير من العلوم ما يورث الشك و يلبس على الإنسان عقيدته .

ولابد بعد أن أشرت إلى هذا الموضوع من بيان الطريقة لتصفية هذه العلوم وصبغها الصبغة الإسلامية، كيف يتم هذا ؟ يتم هذا بإزالة الازدواج الذي يشعر به الناس ويشعر به المتعلمون، هذا الازدواج يزول إذا وجد في علماء الدين من يدرك ما التبس بتلك العلوم، ووجد في المهرة في تلك

العلوم من له ثقافة إسلامية تمكنه من أن يميز الطيب من الخبيث ، وإن هذا العمل لا يكفي فيه الجهد الفردي وإنما يجب أن توضع له الأسس وتعدّ له البرامج لكي تتناول مقولات هذه العلوم واحدة بعد واحدة فيميز ما كان منها أساسيا وما كان منها دخيلا، وينظر لها المقابل سواء فيما نقل من علوم الإسلام من علوم الأخلاق وعلوم التصوف وعلوم الفقه والتفسير والحديث، فإن كثيرا من العلوم التي نظنها جديدة، كعلم الفلسفة والتربية وعلم النفس وعلم الاجتماع ، موجودة في كتب المسلمين ولكنها تحت أسماء أخرى وعناوين مختلفة ، فإذا أخذت هذه المقولات ووجد لها المقابل، سواء كان مقابلا تراثيا أو كان مقابلا مستفادا من الموازين التي نملكها في هذا الدين وهي ميزان النقل الصحيح علم مصطلح الحديث وميزان التفكير الصحيح علم أصول الفقه، فإننا نستطيع أن نوجد البدائل وأن نقوم هذه العلوم تقويما صحيحا و نستفيد منها .

وهكذا يتبين أمران :

أن كل العلوم نافعة وإنما يأتي الضرر مما يلابسها ويشوبها .

أن صياغة العلوم صياغة إسلامية ليست بالمطلب اليسير وليست بالأمر المستأخر ، وإنما هو واجب سريع لأن ضمان عقيدتنا وضمان سلامة نشأتنا وضمان استقامة هذه الأمة واستعادة أجدادها ، إنما هو رهين بأن تكون هذه العلوم مدعاة للإيمان لا مدعاة للتشكيك، فنحن لا نريد أن يبني عالم الدين ومدرس التربية الإسلامية ثم يأتي معلم العلوم والأحياء والنبات فيهدم من حيث يبني ذاك .

متى يبلغ البنيان يوما تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

لقد كان فيما مضى طرح كثير من الحوافز لطلب العلم والازدياد منه ومع هذا فإن من الضروري الإشارة إلى موانع العلم والعوائق التي تعوق عن طلبه، وهذه العوائق كثيرة وأحسن من لخصها ابن ساعد الأنصاري الذي كتب عن إحصاء العلوم وتناول المقدمات التي لا بد منها للمتعلم ، يقول :

إن موانع العلم تنحصر في ستة موانع وهي :

١ - الوثوق بالزمان وانفساح الأمل، فعلى الإنسان أن يزداد علما في كل يوم يمر عليه فمن يزداد فيه علما يفتقد البركة من ذلك اليوم، ولكن طبيعة الإنسان هي التأجيل والإمهال فهو يثق بأن الزمان طويل وأن الفرص كثيرة ويفسح الأمل لنفسه، وطول الأمل يقتل العمل، ولا يدري الإنسان أن الفرص المضاعة لا تعوض ولا تقضى، وفي هذا يقول ابن ساعد : أسباب الدنيا تكاد تتزايد على أعداد اللحظات، من أمور ضرورية وغيرها ، وكلها شواغل، والأمور التي يتم بمجموعها التحصيل إنما تقع على سبيل البحث والتفتيش وإذا تولت الفرصة فهيهات أن يعود مثلها .

٢ - من موانع العلم أيضا الوثوق بالذكاء، وهو أن يستمع المتعلم إلى أمر فلا يتأمله ، أو يجد كتابا مهما فلا يقرؤه، أو يجد فرصة للدرس فيتكل على ما عنده من موهبة ، وكثير من الطلبة يضيع فرص التعلم بهذا

السبب ، وكثير من الناس الأذكياء فاقهم العلم لأنهم اعتمدوا على ذكائهم، مع أن العلم لا يكون بالذكاء وحده ، وإنما يكون بالذكاء والتحصيل معا ، فبالتحصيل يتقن الإنسان الكثير من العلم في القليل من الزمن ، أما الذكاء فإنه ظن وتفكير قد يساعد الإنسان وقد يخونه .

٣ - ومن موانع العلم أيضا انتقال الإنسان من علم إلى آخر قبل أن يحصل منه قدرا يعتد به، وانتقاله من قراءة كتاب قبل ختمه، وهذا أمر نشهده ويعرفه الكثيرون فإن الصبر مفتاح العلم والمواظبة والمداومة أحب الأمور إلى الله يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أحب العمل لله ما داوم عليه صاحبه " (١).

٤ - كما أن من موانع العلم طلب المال والجاه والركون إلى اللذات والأخذ بالعاجل من الكسب فرارا من الانتظار والصبر وكثير من الناس يمنعونهم عكس هذا الأمر، وهو ضيق الحال وقلة ذات اليد وعدم المقدرة المادية التي تعين على الاشتغال بالعلم، وكلا الأمرين يقضي على العلم في مهده، فالذي يترك فرص التعليم ويسرع إلى جمع المال وتحصيل الجاه ويركن إلى اللذات والذي تضيق ذات يده عن كسب العلم وتحصيله يفتقد العلم منذ البداية ولذلك يقول القائل :

رب علم أضاعه عدم المال وجهل غطى عليه النعيم

٥ - ومن أسباب الحرمان من العلم إقبال الدنيا على الإنسان وتقلبه في الأعمال وولايته المناصب، فالعلم يحتاج خلوة وفراغا وإقبالا، وإذا شغل الإنسان بهذه الأمور الدنيوية فإنه يصبح بعيدا عن العلم .

(١) رواه ابن ماجه .

هذه أمور عامة ، وهناك أمور خاصة تسبب الحرمان من العلم :

أولها ترك السؤال فلا يتعلم العلم من يتقاعس في السؤال، والسؤال نصف العلم ، فإذا سألت فإنك تتصور الأمر الذي تسأل عنه ولا يبقى إلا الجواب، والسؤال يستدعي العلم ويستخرجه من مكانه، ولذلك سئل ابن عباس فقيل له : بم أخذت هذا العلم الذي تحويه فقال : بلسان سؤال وقلب عقول .

ومن أسباب حرمان العلم سوء الإنصات وعدم إلقاء السمع، يقول الله عز وجل : ﴿ إِن فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ (١) .

ومن أسباب حرمان العلم سوء الفهم، فالذي لا يتأنى حتى يتلقى العلم ويبادر للاعتراض من أول كلمة يسمعها أو أول فكرة تتطرق إلى ذهنه فإنه يحرم من العلم، فمن أساء فهما أساء إجابة، وكثير من الأمور يعيبها الإنسان وآفتها من الفهم السقيم

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفهم السقيم

كما أن حرمان العلم يكون بعدم الحفظ فالعلم لا يكون بالكتب وإنما يكون بالإدراك والتلقي واستقائه من الكتب وتكوين الملكات العلمية ، والملكات العلمية أن يتقن تعاليم علم ما حتى لا يحتاج معه إلى استحضار القواعد وملاحظتها، فإذا صارت العلوم ملكات فإنها تغني الإنسان عن حمل الكتب، فالعلم ما حمل وليس العلم ما وجد في القماطر والكتب .

وإن من أسباب حرمان العلم عدم نشره وتعليمه بين الناس، فمن خزن علماً ابتلاه الله بنسيانه وهذا فضلاً عن العقوبة الأخروية التي تنتظره .

(١) سورة ق / ٣٧ .

كما أن من أسباب حرمان العلم عدم العمل به فإن العمل به يعين على تذكره وتدبره ويدعو إلى مراعاته والنظر فيه، فإذا أهمل العمل بالعلم نسيه صاحبه، ولذلك كان السلف الصالح يقولون كنا نستعين على حفظ العلم بالعمل به .

فهذه الأسباب تجعل الإنسان يأخذ من العلم بوسائله وبأسبابه، ويحصل العلم بحسن السؤال وحسن الإنصات والاستماع وحسن الفهم والفحص والحفظ والتعليم ، وبغير هذه الأسباب لا يستطيع الإنسان أن يأخذ العلم لأن لكل شيء أسبابه ومن أخذ أمرا بغير سببه كلف نفسه شططا .

هذا، وإن التحصيل للعلم له وسائله، فمن وسائل العلم الكتاب والمعلم وقد كان القدماء يفاضلون بين الكتاب والمعلم، فبعضهم يفضل الكتاب، لأنه مهما بلغ جهود الكتاب فإنه لا يحول بين الفهم وبين المتعلم، أما إذا كان المعلم ليس على ما ينبغي فإنه قد يعطي المتعلم علما غير صحيح، وأكثر القدماء آثروا المعلم ، لأن المعلم يحقق المعرفة كما يحقق القدوة والتمارين العملي، ولذلك كانوا يذمون من يأخذون العلم عن الصحف والأوراق ويتندرون بما يقع لهؤلاء المتعلمين من الكتب دون تلق وتلقين من هفوات وتصحيفات، لأنهم قد يقرؤون عبارة على غير وجهها فإذا بهذه العبارة تسوقهم إلى الضلال المبين، فالمعلم هو مفتاح العلم والمعلم يقدر أن يعلم بدون كتاب إذا كانت لديه الملكة، أما الكتاب فلا يستطيع الإنسان أن يستفيد منه إلا إذا قرأه ، ومع هذا فإن التأليف هي أوعية العلم .

وقد اهتم المسلمون بكتابة المؤلفات وأكثروا منها حتى آل الأمر إلى أن يقول القائل : " ما أفسد العلم إلا كثرة التأليف " .

والسبب في هذا أن بعض المؤلفات كانت لشهوة التأليف ولم تكن تحقق المقاصد التي لا بد منها للتأليف .

وقد بينوا أن التأليف يجب أن لا تخلو من أحد سبعة أمور :

- ١- أن تشرح أمرا مغلقا .
- ٢- أو تصحح أمرا خطأ .
- ٣- أو تودع معرفة جديدة .
- ٤- أو ترتب علما متناثرا .
- ٥- أو تجمع علما مفرقا .
- ٦- أو تختصر علما فيه تطويل .
- ٧- أو تتم أمرا ناقصا ^(١) .

ولكن من رحمة الله كثرة التأليف حتى في الموضوع الواحد إذ لولا تكرار التأليف وكثرته لضاع علم كثير في النكبات التي تعرضت لها الأمة، فكان فيما تكرر من الكتب استمرار للمعرفة عن طريق تلك البدائل .

(١) انظر مقدمة كتاب كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة .

في أواخر حديثنا عن العلم والازدياد منه قد يتساءل الإنسان عن حظ النساء منه، فما هو حظ المرأة من العلم والتعليم؟ وما موقف الإسلام من تعليم المرأة؟

إذا كان هذا الموضوع في أيامنا أمراً معتاداً فإنه كان له في التاريخ شأن خاص، ففي الجاهلية كانت المرأة لا تعد شيئاً، كما تقول عائشة رضي الله عنها: "كنا لا نعد النساء في الجاهلية شيئاً حتى جاء الإسلام فأنزل فيهن ما أنزل وفرض لهن ما فرض"^(١) فما الذي وضعه الإسلام في أمر تعليم المرأة؟

إن أحكام الإسلام وشرائعه توجه للإنسان المسلم في شخصه، سواء كان ذكراً أم أنثى، ومن هنا يقول الله عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾^(٢). فالعمل الصالح والعلم النافع ليس مقصوراً على الرجال وحدهم وإنما يشترك فيه المسلمون والمسلمات، ويروى أن سبب نزول قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٣)

(١) رواه الترمذی وابن ماجه .

(٢) سورة النحل / ٩٧ .

(٣) سورة الأحزاب / ٣٥ .

هو أن النساء افتقدن ذكرهن على وجه الخصوص في كثير من الآيات الكريمة، وخلن أن في ذلك حرمانا لهن من الذكر الحسن والتنويه بشأنهن، فترلت هذه الآية بطولها، وهي تعدد المسلمات مع المسلمين والمؤمنات مع المؤمنين إلخ، وتبين أن كل آية تناولت الرجال فإنها تشمل النساء أيضا، وقد سبقت الإشارة إلى أن شراح حديث رسول الله الذي يقول فيه: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"^(١) فهموا من روح التشريع أن هذا الحديث نفسه يشمل المسلمة فقالوا: "أي ومسلمة".

لقد كان تعليم النساء في الجاهلية أمرا مفتقدا إلا قلة من النساء عرفن بالتعلم والتعليم، وكان ممن اهتمت بالكتابة وتعلمها امرأة تدعى الشفاء العدوية، هذه المرأة الصالحة كانت تعلم النساء الكتابة، وقد بلغ أمرها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى عليها وحضها على ذلك، فقد روي في كتب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "للشفاء العدوية علمي حفصة رقية النملة كما علمتها الكتابة"^(٢) والنملة داء في الجلد والرقية دعاء يدعى به لزوال هذا الألم وقد أخذ العلماء من هذا الحديث الشريف تصريحاً أكيدا بمشروعية تعليم المرأة في ذلك الوقت الذي كان الجاهليون لا يرون هذا الأمر مستساغا.

وانطلق النساء المسلمات يتعلمن ويعلمن، يعلمهن أزواجهن ومحارمهن ويتعلمن في البيوت ويحضرن المساجد، فإذا رأين أن حظهن من التعليم لم يكن كافيا طلبن أن تعقد لهن مجالس للتعليم على وجه الخصوص وهذا ما حدث من صحابيات رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن بعض الصحابيات قلن لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله، ذهب

(١) رواه ابن ماجه .

(٢) رواه أبو داود والدارمي .

الرجال بجديتك، أي أن الرجال ازدحموا على مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم فتعذر على بعض النسوة أن يدخلن تلك المجالس فبعث لهن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهن أن يجتمعن في بيت إحداهن فاجتمعن في ذلك البيت وجاء رسول الله وعلمهن مما علمه الله، ونلاحظ من هذا الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأب تعليم النساء بل حض عليه ولكنه علمهن ما يحتاجن إليه، فقد علمهن ما يتصل بالصبر والاحتساب عند فقد الأولاد وعلمهن حقوق الزوج، وعلمهن تربية النشء، وفي صنيعه هذا عليه الصلاة والسلام التنويه بأن تعليم المرأة يجب أن ينحى فيه المنحى النافع لهن فلا يكون التعليم نوعاً من المكاثرة والمباهاة وإنما يكون من وضع الأمر في موضعه المناسب .

لقد حفل التاريخ الإسلامي بنماذج كثيرة من النساء العالمات فمنهن من تفقهن في الدين حتى بلغن درجة حام حولها كثير من الرجال، ومثال هؤلاء عائشة بنت الصديق رضي الله عنها فقد كانت من المكثرات في الحديث وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونها عما لا يعلمون من خبر رسول الله، بل كانت إلى جانب ذلك عالمة بأشعار العرب، يقول عطاء صاحب ابن عباس : كانت عائشة أفقه الناس وأعلم الناس، وقال عروة بن الزبير: " وإن كان يترل شيء عند عائشة إلا أنشدت فيه شعراً " فإنها كانت شديدة الاستحضار لشعر العرب والاستشهاد في كل مناسبة بما يناسبها .

وكذلك كانت من فقيهات الصحابيات أم الدرداء زوجة أبي الدرداء واسمها خيرة بنت أبي حدرد، وكان هناك فقيهات أخريات وأديبات وشواعر وكان من هؤلاء النسوة من يزاوِلن مهمة التعليم والتعلم، فقد ذكر بعض من أرخ للأندلس أنه كان في قرطبة في الجانب الشرقي منها مائة وسبعون امرأة كن يجدن الكتابة بالخط الكوفي ويكتبن المصحف به وهذا مثال يدل على مدى الازدهار العلمي في أوساط المرأة ومدى الاهتمام بتثقيف النساء وتعليمهن .

هذا، وإن بعض الناس يحاول أن ينظر إلى العهد القريب أيام كانت فرص التعليم قليلة وكان المسلمون في سبات عميق، فكان هؤلاء المغرضون يحاولون أن يربطوا بين هذا الوضع وبين المبدأ، وكثيرا ما يكون الوضع مخالفا للمبدأ، ويستشهد هؤلاء بقول أبي العلاء المعري في النساء :

علموهن الغزل والنسج والردن وخلصوا كتابة وقراءة
فصلاة الفتاة بالحمد والإخلاص تجزي عن يونس وبراءة

وإن كلام أبي العلاء المعري هذا ليس نابعا من تعاليم الإسلام وإنما هو نابع من مخالفته المؤلف، والذين كتبوا وقرؤوا عن أبي العلاء المعري يعرفون له شيئا من التفرد في الأمزجة والأفكار والفلسفة، وليس ذلك الاتجاه مستوحى من شريعة الإسلام فإنها جاءت تعلم المرأة، روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوج رجلا من امرأة على أن يعلمها ما يحفظ من القرآن ، فهذا أبلغ تكريم للتعليم وأهم تأكيد لتعليم المرأة .

هذا، و ينبغي أن يكون التعليم ملاحظا فيه ترتيب الأولويات ، فإن هذا التعليم إما أن يكون من وجه الفريضة التي تفترض على المسلمة كما تفترض على المسلم وهذا أمر يستوي فيه الرجال والنساء فتتعلم المرأة ما يهتمها من أحكام دينها وما تتعرف به الحقوق الواجبة عليها تجاه زوجها وتجاه أولادها وتجاه أمتها . أما إذا كان التعليم من باب فروض الكفاية وتحصيل الملكات العلمية فإنه أمر مباح يتسابق إليه الرجال والنساء ، وليس هناك ما يمنع المرأة التي يمكنها التوسع في هذا المجال دون أن تهمل الأولويات المطلوبة منها أصالة من أحكام الشريعة ومبادئها .

★ ★ ★